الرواية فى السودان

الهروب الاحتجاجي.. إلى أرتكاتا[1]

من أهم ما يميز الرواية بصفة عامة، والرواية العربية بصفة خاصة، استجابتها للتغيرات والفورات المجتمعية الحادثة بها، نتيجة الانفتاح على العالم، وما أدى إليه من زيادة الوعى بما تعانيه هذه المجتمعات.

ولما كانت هذه المجتمعات لا زالت تعيش الأمية الديمقراطية، وتفرض سطوتها وقمعها على كل صاحب رأى أو رؤية، وفى مقدمتهم الكتاب عامة، فطاردتهم وألحقت الكثيرين منهم السجون والمعتقلات، أو أرغمتهم على الهجرة خارج البلاد.

والأمثلة على ذلك كثيرة، خاصة كتاب الستينيات الذين استيقظ وعيهم على ما يدور تحت السطح، من كبت وتكميم، فلجأوا إلى الأساليب الرمزية التى تحايلوا بها على جهل الرقيب، أو الهروب من المباشرة فى المواجهة، فاستعاض بهاء طاهر بـ (صفية) عن مصر رمزًا فى "خالتى صفية والدير"، وصنع الله إبراهيم بـ(أشرف عبد العزيز) فى "شرف"، واستحضر جمال الغيطانى عصر المماليك، ليلبسه ثوب الحاضر فى " الزينى بركات ". ومن قبل كان فتحى غانم قد صورها فى شخصية صفية فى (زينب والعرش)، وكان نجيب محفوظ قد صورها فى (العوامة) فى رائعته المبكرة فى هذا المضمار فى (ثرثرة فوق النيل).

وإذا كانت الرواية قد لعبت دورًا تنويريًا، بفتح باب الحوار بين الثقافة العربية والثقافة الغربية، فأشعلت قنديلاً لا شك كان له

---

(1) أرتكاتا – هشام آدم – شمس للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – القاهرة ٢٠٠٨.

دور كبير فى محاولة إيقاظ تلك الشعوب النائمة. فقدم توفيق الحكيم "عصفور من الشرق" وقدم يحيى حقى "قنديل أم هاشم" وقد اللبنانى سهيل إدريس "الحى اللاتيني" وقدم السودانى الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" اعتمدت إما على عودة العربى من الغرب محملاً بالجديد من الأفكار على مجتمعه، وإما بتجربة العربى فى الغرب، فكان الاحتكاك وكانت المقابلة، خالقة نوعًا من الصراع بين الحالتين.

ثم يأتى الكاتب السودانى "هشام آدم" فى أولى رواياته "أرتكاتا" مستفيدًا من تلك الحالات (الرمزية والاحتكاكية)، ليخرج بشكل جديد، حيث يزرع العربى فى الخارج متخفيًا بزى أفرنجى (إسبانى على وجه التحديد)، ليصب جام غضبه ورفضه للممارسات العربية عامة، والأصولية خاصة، وكأنه هروبًا من المواجهة المباشرة غير محسوبة العواقب، يهرب إلى الخارج ليعلن معارضته لما يدور فى بلده التى سيطر عليها حكم الأصوليين والإسلاميين، فى عهد كل من النميرى والترابى، ولما جرى من وراء حكمهم من اعتقالات وكبت حريات، وتطبيق للحدود تطبيقًا حرفيًا مجحفًا.

لمن لا يعرف إسبانيا مثلى، يبدو العنوان محيرًا "أرتكاتا"، فما فى لغتنا العربية ما يؤدى بنا إلى معنى أو إيحاء، فنضطر إلى تجاوز العنوان فنفاجأ أننا أمام نص مغاير، يبدو كما لو أنه نص مترجم، فالأجواء غير عربية، ثم نجد شخصًا يدعى "كاسبرسا رجينيو" يروى ذكرياته، يقوم برحلة خارجية – عبر إسبانيا – وداخلية عبر الأديان، تفرغ أبوه بعد التقاعد للعبادة. إلا أنه لم يغادر قساوته، بل وغلظته. وفى رغبة منه لاستثمار ما خرج منه عند التقاعد يقرر تربية الخيول، يتأمل الفتى كاسبر وتخرج منه أمنية تعبر عن عمق العلاقة بينه وبين الأب، ومدى التباعد والفجوة {ربما يفلح فى تربية الخيول، طالما لم يفلح فى تربية أبنائه}.

ولم تكن العلاقة مع الأب بأفضل منها مع الأم، التى تنظر للأبناء – كإحدى الأرستقراطيات – إلا على أنهم للوجاهة الاجتماعية فقط.

ثم تبتر جميع العلاقات النسائية للفتى كاسبر، حتى تلك التى هجرها منذ تسع سنوات (كارسيس) التى لم تصارحه بالحب إلا بعد هذه الفترة، وبعد أن تكون قد تزوجت، إلا أن علاقة جسدية تقوم بينهما، ليتأمل الفتى (بإحساس شرقى / رغم أنه لم يكن شرقيًا):

{وفكرت ذات يوم فيمن أكون، وذهلت للنتيجة التى توصلت إليها، فلم أجد نفسى سوى خاسر متبجح، فقد خسرت ساريسيا وكارسيس ووالدى ونفسى قبل كل ذلك، ولم أزل أبحث بين الكتب المقدسة عن إجابات لأسئلتى المهرطقة، عرفت عندها أنه يجب علىَّ أن أبحث عنها فى مكان آخر}[1]. وليكشف عن الرحلة الأخرى (الداخلية) حيث يجد (كاسبر) فى إحدى الرحلات الجامعية يواجه المرشد السياحى المسلم "جهاد" – ولا شك أن الاسم هنا ذا دلالة – فلا يفتأ أن يتفجر الكره الدفين الذى زرعه فيه جده للمسلمين منذ أن (غزوا) – على حد تعبير الجد – إسبانيا فى مطالع عهد الاسم. غير أن الفتى (كاسبر) عندما يطالع بعض الكتب التى تتحدث عن ذلك الرجل الذى جاء (قبل ألف عام) فكنت {عكس ما توقعت، فمضيت أقرأ فى سيرته حتى وصلت إلى اللحظة الأخيرة التى سبقت موته، فوجدتنى أبكى كأننى فقدت صديقًا مقربًا لم أقرأ عن شخصية مثيرة بقدر ما قرأت عن محمد نبى العرب، فأحسست تجاهه باحترام كبير، وتمنيت أن يكون ما قرأته عنه صحيحًا وغير محرف}[2]. ولنكتشف نحن أن هشام آدم ما أراد نقد الأساليب الإسلامية فى حد ذاتها، وإنما أراد

(1) ص ١٢٧.

(2) ص ١٢٢.

إدانة أساليب أتباع الإسلام، فى الحين الذى يتبرأ منه نبى الإسلام ذاته. وليصل فى النهاية إلى {قناعة لا أعرف منبعها أن التدين لا يشترط وجود دين، يجب أن يحاسب الناس على أعمالهم، لا على اتباعهم لدين ما بعينه}[1].

الرواية والتلقى

تثير رواية (أرتكاتا) العديد من التساؤلات التى تدور حول عملية التلقى، تلك التى تقوم على اعتبار القارئ طرفًا فعالاً للعمل، وعنصرًا فاعلاً فى وجود النص. فهل يتفاعل قارئ "أرتكاتا" معها رغم ما قد يخالف أفق توقعه حول كتابة لكاتب عربى؟

إن الفضاء والشخوص يعيشون بيئة ليست مألوفة لهم. على الرغم أن الكاتب لم يستطع التخلص نهائيًا من بيئته، حيث نستطيع تبين بعض الملامح التى تنتمى إلى البيئة الشرقية والتى قد تبدو غير مألوفة فى المجتمع الغربى (حتى لو كان فى الأندلس التى تعيش بقية من الأجواء الإسلامية) مثل ذلك الإحساس بالخطأ الذى عاشه السارد بعد العلاقة المحرمة مع محبوبته السابقة رغم زواجها. كذلك، تلك الوصية التى أوصاها الأب لزوجته باصطحاب الابن {إلى حيث مسقط رأسه لتتعرف على أقاربنا هناك، كان تصرفه هذا الذى بدافع صلة الرحم...} و{لا يخلو من زهو ذكورى طالما رغب أن يشعر به..}[2]، وأيضًا {.. المرأة التى ترفض (الزنا) أو تستغيث كانت تعد امرأة غبية لأنها تفضح نفسها بنفسها..}[3]. وهو الأمر الذى يعتبر إحساسًا شرقيًا تمامًا، يشهد على ذلك حالات الاغتصاب التى تصيب الكثيرات، ويفضلن الصمت خشية الفضيحة.

---

(1) ص ١١٤.

(2) ص ١٣.

(3) ص ٤٩.

ولا شك أن هذا الخلط يوقع القارئ فى الحيرة. ويؤدى لعدم نقاء الفضاء المكانى، خاصة وأن هناك من المواقف التى كانت تصلح للأداء فى البيئة السودانية وتمنح العمل مصداقية أكبر، وللمكان فعلاً أقوى مثل مشهد غرق الطفل فى نهر "كويريو"، وما استتبعه من خلع الرجال لملابسهم، فما كان أحرى به أن يتم فى أحد فروع النيل السارى فى العديد من دول إفريقيا ليبث فيه ليخصب الأرض، وليتحول فى ذات الحين لمصدر الموت أيضًا.

الشخصيات والأسلوب

على الرغم من أن كل الشخصيات الواردة بالرواية جاءت كلها مجرد أدوات مساعدة، إلا أن الكاتب استطاع زرع كل المسببات التى تصنع من "كاسبر" شخصية مهيأة لما آلت إليه من ضياع وتفتت وتشتت لم يصل لحد اليقين فى لحظة – حتى تلك التى بكى فيها عند القراءة عن نبى العرب {وتمنيت أن يكون ما قرأته عنه صحيحًا وغير محرف} ، فجاء كاسبر شخص فقد التعاطف مع الأب المنحدر من "القبائل النوركية"، والأم المنحدرة من أصل فرنسى والنفس التى تشتت وازداد تشتتها عندما {وقعت فى يدى بعض المخطوطات والمنشورات الدينية فى مكتبة الجامعة تتحدث عن الخطبة التى ألقاها البابا أربان الثانى فى "كليرمونت" والتى يحرض فيها المسيحيون على عداء المسلمين الذين نعتهم بأنهم "أبناء عاهرات" وأكد فى المقابل حصولهم على مكافأة من الرب لكل من يقتل مسلمًا، عندها توقفت عن القراءة وتساءلت عن أى رب يتكلمون؟ هل يكون الرب يدًا يبطش بها كل من استساغ القتل؟ وإلى جانب من يقف هذا الرب؟ كيف يهب جنته للبرابرة مقابل قتلنا، ويكافئنا بذات الجنة مقابل ذات الفعل؟}[1]، ذلك التشتت

(1) ص ١١١.

والتشكك إلى جانب الخوف من السباحة، والخوف من الطيران، جعل من "كاسبر" شخصية مهيأة للضياع وفقدان الثقة والحب فى كل ما ومن حوله، حتى الأديان ذاتها، الأمر الذى لم يكن ليبوح به (كعربى) فاستزرع تلك الشخصية الغريبة حتى يعلن من خلالها رفضه للممارسات الآنية.

على الرغم من استخدام الأسلوب السلس الهادئ النبرة، وما يؤديه من جذب للقراءة، إلا أن تأخير البوح بما تريده الرواية إلى الصفحات الأخيرة، جعل الرواية تسير كما لو كانت مجرد ذكريات لشخص لا يعنينى (كقارئ) - حيث يفقدنى التعاطف الذى هو أول مراحل التفاعل - ساعد عليها استعمال تواريخ معينة ومحددة، ليس لها أى دلالة عامة، مما يزيد من الإحساس بذلك، الأمر الذى قد يجعل القارئ أقرب إلى الهروب، خاصة أنه لا يستطيع أن يجد نفسه فى العمل، طالما العمل فى المحك الأول رسالة، فضلاً عن كونه موضوعًا جماليًا، موجه لقارئ، هو الآخر نتاج أوضاع اجتماعية متغيرة.

كما توجد بعض الأخطاء التى كان يمكن التجاوز عنها بحكم العمل الأول، غير أن حصول الكاتب على الماجستير فى اللغة العربية يجعل من الصعب التجاوز عنها خاصة تلك التى تتعلق باستعمال الهمزة، والركاكة الأسلوبية فى القليل مثل: {حتى وأنا أعلم كيف سوف أوصلها إليك} والتى على الرغم من قلتها، إلا أنه فى هذه الحالة لا أستطيع تجاوزها.

وعلى الرغم من ذلك يبقى لهشام آدم رؤيته غير المسبوقة – فيما أعلم – والتى تعطى لروايته طزاجتها، وريادتها فى عملية التخييل التى يتحايل بها الكاتب على الواقع بهذه الطريقة.

فهرس

إهداء ٥

مقدمة: الرواية والمجتمع ٧

الرواية فى مصر الآن ١٧

ليس دائمًا يعمل... قانون الوراثة ١٨

كائن العزلة.. وبطولة اللافعل ٢٨

والجنة مثوانا فى.. بهجة العمي ٣٦

عباس.. الأميبا.. لمن هو عبد ٤٨

السحر الأسود.. يُكفّن الحاضر ٦٢

بمناسبة الحياة.. "م تيجى نتمرد" ٧١

دستور خيرى فى.. "كتاب التوهمات" ٧٨

خيانات.. سمير عبد الفتاح.. غير الشرعية ٩١

العابثون فى الملاعب المفتوحة ٩٩

متاهة مريم متاهة جيل من الروائيين ١١٢

الأبالسة تلهو.. بمستقبل الوطن ١٢٠

الرواية فى سوريا ١٣١

التداوى بالحب.. فى القلاع الضامرة ١٣٢

ذاكرة.. ابتسام التريسى تستقرئ واقع الأمة ١٤٠

القنابل فى عسل.. سلوى النعيمى ١٥١

الرواية فى السعودية ١٥٧
الثورة الناعمة فى بنات الرياض ١٥٨
الرواية فى المغرب ١٦٥
"ثقل العالم" والوضع العربى ١٦٦
الرواية فى السودان ١٧٧
الهروب الاحتجاجى.. إلى أرتكاتا ١٧٨

صدر للمؤلف

١ - أفراخ الحمام مجموعة، قصصية المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨.

٢ - الممنوع من السفر مجموعة قصصية، مركز الحضارة العربية، ١٩٩٨.

٣ - البواكير فى القصة القصيرة دراسات نقدية، مركز الحضارة العربية، ١٩٩٩.

٤ - يونيو ٦٧ وأثره فى الرواية المصرية دراسات نقدية، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٠.

٥ - ربع ساعة بعد النهاية، دار سندباد للنشر والتوزيع رواية، ٢٠٠٤.

Email: shyehia@yahoo.com

من قائمة الإصدارات دراسات ونقد

مستحيل الكتابة	د. أحمد الدوسري
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
مغامر حتى النهاية	إدوار الخراط وآخرون
الاستفهام بين النحو والبلاغة	د. الطاهر قطبى
الإعلال عند النحاة واللغويين	د. الطاهر قطبى
الإضافة أحكامها ودلالتها	د. جميل علوش
مناظرات فى اللغة والنحو	د. جميل علوش
الخطاب والقارئ	د. حامد أبو أحمد
حفريات نقدية (دراسات فى نقد النقد العربى المعاصر)	د.سامى سليمان أحمد
آفاق النظرية الأدبية الحديثة	د.السيد إبراهيم
المتخيل الثقافى ونظرية التحليل النفسى المعاصر	د. السيد إبراهيم
تعالقات الخطاب (السردية والمقالية) طه حسين أنموذجًا	د.عبد الرحمن عبد السلام محمود
البلد البعيد (دراسات فى أدب جوته - شيلر....)	د. عبد الغفار مكاوى
نقد وشعر وقص	د. عدنان الظاهر
محمد مندور شيخ النقاد	فؤاد قنديل
اغتيال المتنبى	فيصل الياسرى
فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
قطعان الكلمات المضيئة	محمد عقيلة العمامى
من التصوف إلى الفلسفة	د. مزهر الخفاجى
أدب الطفل العربى بين الواقع والمستقبل	ممدوح القديرى
سلطنة عمان بين التراث والمعاصرة	يوسف الشارونى
أثر الأدب العربى فى الأدب الغربى	د. يوسف عز الدين
التوجهات النقدية فى رواية عودة الروح	أحمد بدران
المشهد القصصى	إدوار الخراط
القصة والحداثة	إدوار الخراط
تقاسيم نقدية	زينب العسال
أنثى النص (مقاربات فى الأدب النسوى)	سعد الدين خضر
الصوت والصدى (قراءة فى المشهد الإبداعى)	السيد رشاد

البواكير فى القصة القصيرة	شوقى عبد الحميد
إنتاج الدلالة الأدبية	د. صلاح فضل
منهج الواقعية فى الإبداع الأدبى	د. صلاح فضل
تحولات الخطاب فى القصة النسائية الإماراتية	عبد الفتاح صبرى
أدب الجسد بين الفن والإسفاف	د. عبد العاطى كيوان
الإغارة على الحدود: دراسات فى أدب إدوار الخراط	د. ماهر شفيق فريد
قص، يقص: دراسات فى القصة القصيرة والرواية العربية	د. ماهر شفيق فريد
التحليل النفسى للأدب	د. محمد حسن غانم
انطباعات أدبية ورؤى نقدية	محمد صفوت
السرد فى مواجهة الواقع (فصول من القصة السعودية)	محمد قطب
التشابك الأسلوبى اللغوى فى خطاب الليالى	د.محمد نادر
أشكال السرد فى القرن الرابع الهجرى (كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخى نموذجًا)	د.مصطفى عطيه جمعه
الرواية العربية بين التراث والمعاصرة	مصطفى القذافى
الرواية فى زمن الغضب	ممدوح القديرى
الرواية العربية: رسوم وقراءات	نبيل سليمان
أوراق فى النقد	هيثم يحيى الخواجة
يوسف الشارونى وعالمه القصصى	د. نعيم عطية
معجم أسماء قصص يوسف الشارونى	مصطفى بيومى
معجم حيوان قصص يوسف الشارونى	مصطفى بيومى
المؤثرات الإسلامية فى قصص يوسف الشارونى	مصطفى بيومى
من جراب الحاوى	يوسف الشارونى
فى الأدب العمانى	يوسف الشارونى
القصة .. تطورًا وتمردًا	ليوسف الشارونى
الروائيون الثلاثة	يوسف الشاروني

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية؛ رواية.. قصة.. دراسات ونقد وكتب متنوعة: سياسية، قومية، دينية، معارف عامة، تراث، أطفال. خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة في الإصدار لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز